الاعتدال

بحث ادبي لغوي

دعِ الإفراطَ والتفريطَ فيما تُحاولُ من مقالٍ او فعالِ
فإنَّ سلامةَ الانسانِ مما يُحاذرهُ تكون بالاعتدالِ

١ — تمهيد

الاعتدال التوسُّط بين حالين في كمٍّ او كيفٍ — بين الطول والقِصَر او بين العلوّ والانخفاض او بين الكثرة والقلّة او بين الشدّة واللين ونحوها من الاضداد. فنقول جسمٌ معتدل أي غير طويل ولا قصير. وماء معتدل اي ليس بارداً ولا حارًّا. ويوم معتدل اي طيّب الهواء خالٍ من نفح القيظ ونفح الزمهرير وقس عليهِ. وكلُّ ما استقام او تناسب فقد اعتدل اي توسّط بين طرفي الإفراط والتفريط غير مجاوزٍ حدَّهُ من جانب الزيادة ولا مقصّرٍ عنهُ من جانب النقصان. والاعتدال في كل شيء سرُّ حفظ الصحة وصفاء العيش ونعيم البال كما قال مونتكي القائد الالماني الشهير

٢ — الاعتدال في الطبيعة

وللاعتدال امثلة كثيرة في احوال الطبيعة ومظاهرها. ففي دوران الارض حول الشمس نشاهد كل سنة اعتدالين يتساوى فيهما الليل والنهار. احدهما في آخر فصل الربيع والآخر في نهاية فصل الخريف. والماء في اعتدال درجة حرارتهِ يكون مائعاً كما نعرفهُ. فاذا اشتدّ ارتفاعها تبخّر اي صار بخاراً واذا هبطت درجة حرارتهِ جمد وتحوّل الى جليد او ثلج. والمعتدل من سطح الارض منهُ الفيطان الفسيحة الارجاء والسهول الواسعة الاطراف التي حوَّلها الانسان الحارث الهمّام الى مزارع خصيبة ومغارس نضيرة وجنان فيحاء مستعيناً على إحيائها واغنائها بشآبيب الامطار او بمياه الغدران والجداول والانهار. ومنهُ المفاوز القاحلة والصحارى الجدبة التي قصرت عن استعمارها يد الانسان فظلَّ جيدها الى الآن عاطلاً من حليّ الحضارة والعمران. وما جاوز من سطح الارض حدّ الاعتدال ناشزاً عنهُ فهو الهضاب والجبال وما انخفض عنهُ فهو الوهاد والاودية

٣ — الاعتدال في احوال الانسان

والانسان وهو ابن الطبيعة يجري ابن هذا القبيل يجري امّهِ محتذياً لمثالها وناسجاً

على منوالها . فترى هذا سالكاً في ما يعالجهُ ويزاولهُ من شؤونهِ سبيل الاعتدال وذاك مفرطاً أي مجاوزاً الحدَّ من جانب الزيادة وذلك مفرّطاً اي مقصّراً عنهُ من جانب النقصان . فالشجاع الملتزم في إقدامهِ حدَّ التعقُّل والرزانة وسطٌ بين من يغامر مستهيناً فينتهي الى الاقتحام والتهوُّر ومن يبالغ في الحذر وإيجاس الخوف فيوجل وينكص وينحطّ عن الشجاعة الى الجبانة . والمقتصد اي المعتدل في ما ينفقهُ من مالهِ وسطٌ بين المسرف المبذّر والبخيل المقتّر ونعني عليهِ ما بقي من سائر احوال الإنسان كالأكل والعمل والكلام وهو موضوع البحث

٤ — أوجه الكلام ومزية المساواة

ويراد بالكلام في هذه المقالة كلُّ ما يُلقيهِ المحدّث والخطيب والواعظ على السامعين وما ينشرهُ الكاتب والشاعر في صحيفة او مجلّة او كتاب على القرّاء . ولاجتناب تكرار هذه الانواع في اثناء البحث نُطلق الكلام عليها كلّها والمتكلّم على صاحب كلّ نوع منها فنقول :

قد يكون المتكلّم معتدلاً في كلامهِ اي مفرغاً للمعاني التي يروم إيصالها الى ذهن السامع او القارىء في قوالب ألفاظ على قدرها لا ناقصة عنها ولا زائدة عليها . وقد يختصر في التعبير عن مرادهِ اختصاراً يشدُّ المعنى بوثاق الغموض والخفاء ويسدُّ عليهِ منافذ الوضوح والجلاء . وقد يُسرف في الإفصاح عما في ضميرهِ إسرافاً يجلو المعنى القليل في ثوب لفظٍ فضفاض ضافي الذيول وكثير الحواشي . فالاعتدال في الكلام وسطٌ بين الاختصار والإطالة . وهذه الامور الثلثة تُعرَف عند أهل المعاني بالمساواة والإيجاز والإطناب

وكثيراً ما تتغنّى بجمال الاعتدال وفائدتهِ في الأكل والعمل والإنفاق وغيرها من أحوالها وتتقاضى عن مزاياهُ في الكلام . ومحاسن المساواة وفوائدها انما تظهر جليّاً لعين المتأمّل عند ما يقابلها بعيوب الإيجاز والإطناب ويضدّها تتميز الاشياء

٥ — المستحسن والمستهجن من الإيجاز

فالاختصار او الإيجاز يظلُّ سالماً من الاعتراض ما دام نقص اللفظ وافياً بالمعنى غير مخلٍّ بهِ سواء كان النقص بتقصير العبارة ام كان بحذف شيء منها — جزء جملة او جملة او اكثر — بشرط سهولة الدلالة على وقوع الحذف وتعيين المحذوف . فكل ما يرد منهُ على هذا الوجه نثراً او شعراً مقبولٌ ومستحسنٌ بل هو دليل علوّ الكعب

ورسوخ القدم في امتلاك ناصية الإنشاء البليغ وإحراز قصب السبق في مضمار البيان

اما المكروه المستهجن من الكلام الموجز فهو ما كان قالب لفظه قصيراً ضيقاً ليجيء المعنى مرصوصاً مضغوطاً وعليه من الغموض والإبهام حجاب أكثف من حجاب المعميات والأحاجي. ولشدة تناهيه في الخفاء والتعقيد اللفظيّ او المعنويّ يضطرّ السامع او القارىء أن يستكدّ ذهنه ويجشم أشقّ ضروب الإعنات والإرهاق في فكّ ختمه وحلّ عقدته مقلباً في استكناه معناه وجوه التأويل والتفسير التي تتسع امامه مجالها وضارباً في مفاوز الكهن والتخمين لعله يستطيع جلاء غيهب الشك بنور اليقين فيذهب عناؤه باطلاً ولا ينال من مراده طائلاً

هذا هو الإيجاز المخلّ الذي يثقل على اذن السامع ويسمج في عين القارىء. ومثله قول الحرث بن حلزة اليشكريّ : —

« والعيش خيرٌ في ظلال النـ ـعيم لمن عاش كدّا »

وقول الفرزدق في مدح ابرهيم بن هشام المخزومي : —

« وما مثله في الناس الا مملكاً ابو أمّه حيّ ابوه يقاربه »

وقول العباس بن الاحنف : —

« سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا »

وقول ابي العلاء المعرّي يصف الشوق : —

« طرن لضوء البارق المتعالي بغداد وهناً ما لهنّ ومالي »

وقول ابي تمام : —

« كوامنُ الحبّ فيك كونك في أفئدة العاشقين لم تكن »

وقول ابو الطيب المتنبي في مطلع قصيدة : —

« أحادٌ ام سُداسٌ في احادِ لُيَيْلَتنا المنوطة بالتنادي »

وقوله من قصيدة أخرى : —

« فتى الف جزء رأيهُ في زمانهِ أقلُّ جزيء بعضهُ الرأي أجمعُ »

وغير ذلك مما يطول استيفاؤه : وهو في النثر لا يقل عنهُ في الشعر

٦ — الإطناب

أما الإطناب فقد يهون الخطبُ فيه لو انحصر إسهاب بعض المتكلمين في الاغراض

التي نصَّ عليها علماء البيان كالايضاح بعد الإبهام وذكر الخاص بعد العام تنبيهاً على فضله . والاحتراس لدفع التوهم . والتكرار للتأكيد . والإيغال لزيادة المبالغة . والاعتراض للدعاء والتنبيه والبيان وغيرها . ولكنهم كثيراً ما يأتونهُ اعتباطاً لغير علة سوى إدخال السآمة والملال على قلوب السامعين والقرَّاء وامتحان مبلغ صبرهم على سماع الغلط وتلاوة اللغو

يتصدَّى بعض الناس للحديث في المجالس او للخطابة والوعظ على المنابر فيقضون الدقائق والساعات في الكلام على موضوع يعبّر عنهُ غيرهم في بضع ثوانٍ . فيذهبون بصبر المنصتين لهم ويحملونهم على التبرُّم والتذمر والإعراض عن الاستماع . ويكتب بعضهم نثراً أو ينظم شعراً أطول من شهر الصوم وقد عيث بهِ الاطناب ولعب وأكل عليهِ الإسهاب وشرب . وليس فيهِ من المعنى ما تضيق بعض الجمل او بضعة الابيات عن استيعابهِ

ولهذا أجمع الادباء والحكماء من قديم الزمان على ذمّ كثرة الكلام والتحذير منها وآثروا حتى الايجاز على الإطناب بل فضَّلوا الصمت عليهِ . لانَّ فيهِ منجاة من الاخطار التي يتعرَّض لها الثرثار المهذار وخلاصاً من سماع ما يذهب بصبر ايُّوب وتلاوة ما يُسقم النفوس ويملّ القلوب . قال سليمان الحكيم في سفر الامثال « كثرة الكلام لا تخلو من معصية » . وقال ابو بكر الصديق « ان البلاء موكلٌ بالمنطق » وقال اكثم بن صيفي « مقتل الرجل بين فكَّيهِ » وقال الشاعر : —

« الصمتُ زينٌ والسكوتُ سلامةٌ فإذا نطقت فلا تكن مهذارا
ما إن ندمتُ على سكوتي مرَّةً ولقد ندمت على الكلام مرارا »

٧ — طول الكلام وضيق الوقت

ومما يلاحظهُ المتأمل في اخلاق المولعين بإطالة الكلام على غير طائل أنهم في الغالب أحرص الناس على كل شيء ما عدا الوقت فانهم يزدرونهُ ولا يعرفون لهُ أقل قيمة . ويظنون أن غيرهم مثلهم من حيث التفريط فيهِ وعدم الحرص عليهِ . فلا يهمهم أن يقضي السامعون والقرَّاء وقتهم باطلاً في الإنصات والمطالعة لكلام طويل مفهم بتراكيب يتلو بعضها بعضاً وهي إن لم تتفق لفظاً لم تختلف معناها ومحشوٌ بتعابير حافلة بالمترادفات والمتواردات

ولكنَّ السامعين والقرَّاء في هذه الايام ليسوا كما يتوهَّم بعض الخطباء والكتَّاب

فمعظمهم ان لم يكن كلهم مقيدون بأعمال وواجبات يستنفد قضاؤها أكبر جانب من وقتهم ولا يترك لهم من الفراغ لسماع ما يلقى وتلاوة ما يكتب سوى سويعات معدودة او دقائق محدودة . فإن استغرق السماع او المطالعة وقتاً اطول مما يستطيعون التفرغ له انصرفوا عنه وفاتهم النفع المقصود منه

ومهما يتسع لدى الناس مجال الفراغ للسماع والمطالعة فهم أحرص وأعقل من أن يشغلوه بالانصات والمطالعة إلا لما قلّ وذلّ ولم يطل فمَلّ . ومن أهم مظاهر التمدن الحديث عرفان قيمة الوقت والحرص عليه كما على أغلى الحلى وأنفس الذخائر . واذا كان الناس قديماً قد غفلوا عن هذه الحقيقة لاسباب مختلفة وكانوا لقلة قيمة الوقت عندهم يحصونه بالشهور والسنين فالناس في هذه الايام يحصونه بالدقائق والثواني . والذين يهمهم إحراز قصب السبق في مضمار التقدم والنجاح يقترون على نفوسهم حتى بساعات النوم ودقائق تناول الطعام

٨ — الاطناب المستحسن

او حشو اللوزينج

فن الاطناب السائغ المقبول ما جاء فيه اللفظ زائداً على المعنى لنكتة أو لغرض من الاغراض التي سبقت الاشارة اليها . ولذلك نستحسن كلّ الاستحسان زيادة « لو تعلمون » مثلاً في الآية الكريمة « وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم » . وزيادة « من غير سوء » في الآية الكريمة « وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » . وزيادة « وبلّغتها » في قول عوف بن محلم : —

« إنّ الثمانين وبلّغتها قد أحوجت سمعي الى ترجمان »

وهذا النوع من الزيادة اطلقوا عليه حشو اللوزينج وجعلوه مثلاً لكلّ ما يكون حشوه أجود من قشره . وقالوا عن اللوزينج انه من الحلواء شبه القطائف تُؤدَم بالسكر ودهن اللوز . فحشوه خير منه

ومن حشو اللوزينج في الكلام وقوع الوصل في مواطن الفصل اي زيادة الواو العاطفة بين لا الناهية والجملة الدعائية بعدها . كقولهم « لا وأيّدك الله » . فان الفصل اي ترك الواو يوهم الدعاء بنوع التأييد اي يوهم الدعاء على المخاطب لا له وهو خلاف المقصود . ويقال انّ أبا بكر الصديق أول من سبق الى زيادة هذه الواو . وذلك انه مرّ به رجل معه ثوب . فسأله أبو بكر « أبيعٌ ؟ » فاجابه « لا رحمك الله » . فقال

لهُ أبو بكر « قد قوَّمتُ ألسنتكم لو تستقيمون. هلاَّ قلت لا ورحمك الله ؟ » . وكان الصاحب اسمعيل بن عبَّاد يقول انَّ هذه الواو أجمل من واوات الاصداغ في خدود الحسان

والاصداغ جمع صدغ وهو ما بين العين والاذن . ويطلق على الشعر المتدلي عليهِ ومنهُ قول البهاء زهير : —

« لله اي ُّ تلمٍ لواو ذاك الصدغ خطَّهْ
ويا لهُ من عجبٍ في خدِّهِ كيف نقطْ »

وقولهُ : —

« عسى عطفةٌ للوصل يا واوَ صدغهِ عليَّ فإني اعرف الواو تعطفُ »

ومن حشو اللوزينج زيادة « ولا تكُنْهُ » في قول عدي بن زيد : —

« فلو كنتَ الاسيرَ ، ولا تكُنْهُ إذَنْ علمتَ معدٌّ ما تقول »

وزيادة « من غير كفرٍ بربهِ » في قول بكر بن النطَّاح في مدح مالك بن طوق احد اجواد العرب

« ولو لم يجدْ في العمر قسماً لسائلٍ وجاز لهُ الإعطاء من حسناتهِ
لجاد بها من غير كفرٍ بربهِ وشاركنا في صومهِ وصلاتهِ »

وعدَّ صلاح الدين الصفدي هذه الزيادة غاية في حسن الحشو وجودة الاحتراز ومنهُ زيادة « غير معجَّل » في قول ابي تمام : —

« وجُزيتَ اعلى رتبة تأمولهِ في جنة الفردوس غير معجل »

او زيادة « غير مفسدها » في قول طرفة : —

« وسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمي »

وزيادة « وحاشاك » في قول ابي الطيب المتنبي : —

« وتحتقر الدنيا احتقار مجرِّبٍ يرى كلَّ ما فيها وحاشاك فانيا »

وزيادة « لاخلتَ ابداً » في قولهِ : —

« اذا خلت منك حص لاخلت ابداً فلا سقاها من الوسميِّ باكرهُ »

وزيادة « غير مطرود » في قول ابن الفياض كاتب سيف الدولة : —

« كأساً اذا ابصرت في القوم محتشماً قال السرور لهُ قم غير مطرود »

٩ — الاطناب المستهجن
او حشو الاكر

ومنها يكثر الاطناب المستحسن او حشو اللوزينج فهو اقل جداً من الحشو الزائد بلا غرض ولا فائدة على الاطلاق بزيادة « قبله » في قول زهير بن ابي سلمى : —

« وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي »

لان امس ابي آخر يوم مضى لا يكون الا قبل اليوم . ومنه زيادة « في الانف » في قول علقمة الفحل يصف ارجّة (ضرباً من اليمون) : —

« يحملن ارجّة نضخ العبير بها كأن تطيابها في الانف مشموم »

لان الشم لا يكون بغير الانف . وزيادة « من مقلة » في مطلع البردة لبوصيري : —

« أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم »

فان الدمع لا يجري من غير المقلة . وزيادة « من الدهر » في قول بعضهم : —

« اعني فتى لم تذر الشمس طالعة يوماً من الدهر إلا سرّ او نعما »

لأن اليوم لا يكون الا من الدهر . وقد يكون الزائد متعيناً كما في الامثلة المتقدمة . وقد لا يتعين كما في قول عمرو ابن عديّ اللخميّ : —

« وحكمت الحديد براهشيه فالفى قولها كذباً ومينا »

فان الكذب والمين بمعنى واحد لا فائدة من الجمع بينهما . ولا يتعين الزائد منهما لصلاحية كلّ منهما للزيادة . ومثل ذلك جمع طرفة بين « صوب الغمام » و « ديمة تهمي » في بيته الذي سيق الاستشهاد به . وقد يكون الزائد المتعين مفسداً للمعنى كما في قول غيلان الثقفيّ الملقب بذي الرمّة : —

« حراجيج لا تنفكّ الا مناخةً على الخسف او ترمي بها بلداً قفرا »

فان زيادة إلاّ قد افسدت المعنى كما لا يخفى

ويقال لهذا النوع من الحشو المملّ حشو الاكر لانها لا تحشى الاّ بكل سقط خسيس لا قدر لهُ ولا قيمة . قال جحظة : « انشدتُ ابا الصقر شعراً لي فقال : لا تزال تأتينا بالغرر والدرر اذا جاء غيرك بحشو الاكر . » وحشو الاكر في الثريشبّ عن طوق الحصر . فعلى المتكلمين كافّة ان يجتنبوا الايجاز والاطناب الا لمراعاة ما تقدم من الاسباب . وليعلموا ان الوقت اثمن جداً من ان يقضى بسماع ما يسئم ويملّ وتلاوة ما يسقم ويعلّ

القاهرة إسعد خليل داغر